إني رأيت النسر فوق الغصن يشدو ..

قراءة في ديوان الشاعر عبد الحفيظ النسر (هكذا غنى النسر)

** علاء الدين رمضان **

أهداني صديقي المشرف على الندوة ، كتاباً أشبه بمغارة مقفرة مظلمة تخشاها النفس ولا ترجو التوغل في قفرها الروح ، فكان ثقيلاً على وهنه ، مقلقاً على الرغم من كونه ركاماً منسياً ؛ فاحتملته على مضض وجعلت أقصيه من يدي كلما هممت بالتعرف إلى أجوائه حتى احتشدت لها ذات يوم وجلست أقرأ فيه فإذا أنا أحمل بين يدي منجماً من النجوم اللامعة والفرائد المتلألئة ، طمرتها يد الزمن الجائر قديماً ، وها هي يد التسرع والإهمال تعيد الكرة وتجني مجدداً على هذا الشاعر الرائع بدأً من كتابة اسمه على الغلاف حتى قراءة نصوصه ورقمها على الحاسوب ، وهي في ذلك ضائعة .. ، ضائعة .. ، ضائعة ؛ أضاعتها يد اللامبالاة ، ولولا تحفيز الصديق الجليل الشاعر سعد عبد الرحمن في تقديمه للديوان على قراءته لما ثارت في الدهشة والعجب والتحفز لاستكشاف هذا العالم ومحاولة إزالة ما ران على هذه القصائد واستخراج ما يمكن التكهن به من جعبة الزمن بالاستهداء بهذه الرقاع المهلهلة التي ضاعت منها موسيقا العروض وتناسب أقسام الأشطار أعاريضها وأضربها ، بل واللغة كذلك حيث كان الراقم يكتب كما يسمع إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً دون أن يعتني بالدلالة أو إدراك معنى ، ثم ثنى على ضلاله

بضلال ، عدم المراجعة أو التمحيص ، وكان يجدر بورثة الشاعر أن يعهدوا بالنسخة التجريبية إلى من يضاهيها ويقارنها بالأصل ويراجعها مراجعة العارف المخلص .

وللحقيقة فإن الإصبع التي أشارت إلى كتر الشاعر في هذا الكتاب وجود أبيات ناجية من الحطام تشير إلى تنوع الاستخدام الموسيقي للشعر تنوعاً صناعاً لا يأتيه شاعراً غُفلاً خامل الذكر ، وإنما هو لشاعر متمرس متمكن أخذ لصناعته كل درب وسلك بها كل طريق ، فأبدع وأمتع ، ثم أُحْرِقَ وقُطِّع .. ، وها نحن أولاء نجتهد في استشفاف وقراءة النسق الفني والفكري للشاعر الراحل ..

أولاً : الركن الفني

تتميز البنية الفنية لقصائد الديوان بالثراء والتنوع وقدرتها على إثبات القيمة الأدائية لشاعرها فعلى مدى أربع وخمسين قصيدة ومقطوعة شعرية استخدم الشاعر تسعة أبحر عروضية منوعة بين مجزوء وتام بدأت بمجزوء الوافر وانتهت بمجزوء الكامل ، كان من الوافر سبع قصائد ، ومن المتقارب اثنتان ، ومن الكامل سبع عشرة ومن المجتث ست ، ومن البسيط واحدة ، ومن الخفيف سبع ، ومن الرمل سبع ، وأربع من الطويل وواحدة من الرجز بعد التصويب ، هي "لم أنج" من المقطوعات الشعرية .

ولن أعلق على أخطاء الرقم الالكتروني التي كادت تذري بالشعر والشاعر، وأرى أنه من الحكمة والرأفة معاً أن أترك أمرها ما دامت قد أشرت إليها في صدر حديثي؛ وأكتفي عند الحديث عن الفنيات بالجانب الإيجابي وهو أظهر وأجلى ؛ وأغض طرفاً أو أكاد على ما رأيته سالباً ينتقص من عطاء الشاعر ومعظمه لا دخل له به ولا حيله لغيره فيه .

وأبدأ أولاً بالحديث عن التأثر الواضح بالموشحات الأندلسية في البناء الموسيقي لعدد من القصائد ومن مظاهر ذلك ما يسمى بالتلوين في القافية ، وهي إحدى سمات الموشحات ، إذ ينوع الشاعر في القافية للإفادة من الطاقة الموسيقية لحرف الروي ، ثم من إبداء الثراء الموسيقي عند تغييره وكأنه فراشة تحط فوق زهور كثيرة ليست متشابهة ، ففي قصيدته "لئلا ننسى" من مجزوء الوافر ، يخرج من الباء إلى اللام إلى الراء إلى النون وهكذا ؛ في حركة دؤوبة تجسد روح النص الذي هو في حقيقته محاولة التماس فرجة نحو

الأمل والخروج من سجن الديكتاتور والبحث الجاد عن بصيص من نور يلتمس به طريقاً في حياة الحرية .

وقد استخدم الشاعر، في قصيدته "هلموا هلموا لحمل اللواء"، من المتقارب التـــام ، نمطاً موسيقياً مستمداً من خصائص الموشحات أيضاً ، في بناء القافية وترتيب القصـــيدة التي جاءت في شكل خماسيات شعرية للأبيات الثلاثة الأولى في كل خماسية قافية مستقلة ، ثم تتفق الخماسيات كلها في قافية البيت الرابع ، إذ يستخدم حرف الروي فيها الراء ، ثم تتفق في البيت الخامس حيث تتخذ من حرف النون روياً لها ، وهذه من الأمور الـــتي تساعد في إثراء الطاقة الموسيقية للنص .

وفي قصيدته "ليلة القدر المباركة"، من الرمل ، عني الشاعر باستعراض قدراته الفنية في صوغ القصيدة إذ أضاف إلى فنية بحر الرمل الغنائية قافية منوعة يلزم نفسه فيها بتبويب عروضي خاص ، فقسم قصيدته إلى اثنتي عشرة مقطوعة شعرية التزم في كل مقطوعـــة منها بتقفية العروض والضرب لكل بيت ، وقد التزم في الأبيات الأربعة الأُوَل من كـــل مقطوعة ، بقافية واحدة للعروض ، وأخرى موحدة للضرب ، ثم في البيتين التاليين قافية للعروض وأخرى لضرب ، وهو الأمر الذي رفع من القيمة الموسيقية للقصيدة ، وهـــذا الأسلوب استمده الشاعر من تراثه الأندلسي وعشقه للموشحات ، وهو الأمر الـــذي ظهر واضحاً في مواطن كثيرة من الديوان ، ومن ذلك أيضاً في قصيدته "آه لو تدرين ما بي"، من الرمل ، فيها تأثر واضح بفن الموشحات الأندلسي مع تصرف في أسلوب البنية الموسيقية ، إذ بنى القصيدة على أربع ثنائيات شعرية لكل بيتين منها قافيـــة مســـتقلة ، وختم قصيدته بعد ذلك ببيتين يتكون كل واحد منهما من ثلاثة أشطر ، وقـــد تميـــزت بعض أبيات القصيدة بموسيقية عالية :

آه لو تدرين ما بي .:. من وجوم واضطراب

وســـهاد وعذاب .:. وأنين واكتـــــئاب!!

وفكرة الثنائيات قائم لدى الشاعر في عدة قصائد من بينها قصيدة " هوان الحب ".

أما فكرة التقسيم بوصفها نمطاً أو شكلاً فنياً ، فهي قائمة في ذهن الشاعر يستمد منـــها كثيراً ، فقد قسم خواطره في قصيدة "خواطر" إلى ثلاثة أقســـام ، جـــاءت في ثـــلاث مقطوعات متغايرة المضمون الفكري والنسق الموسيقي العروضي والقافية .

هذه أمثلة دالة نكتفي بها ، لنخلص إلى مثالين آخرين من الاتجاه المضاد ؛ ففي قصيدة "كونوا جميعاً" من مجزوء الكامل ، نجد أن بها خلطاً في تقسيم شطرات الأبيات التبست معه الأعاريض ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى الرقم الإلكتروني .

أما في قصيدته "يا ملكاً تزهو الحياة به"؛ القصيدة من بحر البسيط ، لا مجال هنا لادعاء الخلط الالكتروني ، إذ أن من شروط البحر الجمالية عدم خبن مستفعلن الثانية في كل شطر ، إلا أن الشاعر خبنها في مطلع معظم أشعاره ، لكنه التزم بعدم خبنها بعد ذلك على طول القصيدة ، التزاماً بما نص عليه العروضيون .

وما دمت في ركن الفنيات من هذه الرحلة الماتعة أود أن أشير إلى بيتين من أجمل أبياته الشعرية على الإطلاق ، ففي قصيدته "يا لعجز القوافي"؛ من الخفيف ، بيتان من أجمل ما قال الشاعر :

سكرة الموت أذهلت كل حي .:. ما لحي على الزمان بقاء

كلنا للفناء نمضي سراعاً .:. ونلبي إذا دعانا النداء

لقد استمد الشاعر في هذه القصيدة من فنية التكرار طاقة كبرى للتعبير عن التفجع وهول ما ألم به من نقد صديقه مستأنساً في ذلك ببكاء المهلهل بن ربيعة ابنه ، حيث كرر الشاعر قوله : " أيها السائرون بالنعش " خمس مرات ، كما كرر جملة : " لا تخافوا عليه " و " لست أبكيك " وأنا أبكيك وأرثيك "و " ما رأيناك يستميلك ويستفزك ويحتويك .." ، و : " كنت فينا على الشجاعة ، وعلى الوفاء .." ، فكان الشاعر يكرر ثم يعود مجدداً للتكرار وكأنه رجع صدى للنائحات يندبن صاحبه ، وهذا الأسلوب الأدائي من أكثر الأساليب تأثيراً في النفس وبخاصة في الرثاء ، فهو يجسد الحالة النفسية للشاعر ويصوغ لعاطفته وقصائده محيطاً من الأسى ، يلمس المتلقون وقعه دون جهد أو جدال .

إضافة إلى إسباغ عاطفته المذهبية التي كانت تربط بينه وبين صديقه على آثاره من بعده على سبيل الاستعارة ، فينظر إلى ما كان يعنيه من أمر صديقه ، إلى ذلك الجانب الذي ربط بينهما ، وهو شاغله الأول في حياته وشعره كما أتصور ، فيرى من دار صاحبه رمزاً للتقوى :

هذه الدار قد رفعت ذراها .:. صادق العزم فاستطال البناء

هي رمز على التقى يتمنى .:. بعض آثار فضله الأتقياء

فصاحبه هذا هو الناصر للدين والقرآن فيهم ، لذا يراه شهيداً أو أشبه بالشهيد ، فهو وإن قضى ، إلا أن له ذكراً موصولاً لما كان يأتيه من خير ، وهو عند الله في روح وريحان لا يلاقي ما كان يجد في الدنيا من صراع :

كنت أنت المجلجل الصوت فينا .:. فجلا الضيمَ همةٌ قعساء

ورفعت اللواء يزهو كريماً.:. في سماء العلا فعز اللواء

وجعلت القرآن أسمى نشيد .:. يتغنى بلحنه القراء

أيها الراحل الكريم سلاماً .:. ووداعاً فقد دعتك السماء

وهو يميل إلى استخدام فنية التكرار في قصائده باعتدال يثري القصائد ولا يتخمها .

** الذاتية :

في قصيدته "يا ملكاً تزهو الحياة به"؛ من البسيط ، يتحدث عن نفسه وشعره ، وهذا الاتجاه الذاتي يعد من أبرز أنماطه الأسلوبية التي تؤكد مدى عنايته واحتفائه بنفسه وشعره وذاته وهو عنصر يتكرر كثيراً في مواطن متعددة من شعر الشاعر .

ففي قصيدته "منقذ البشرية"، بعد ذكر أحوال المسلمين ، يعود الشاعر مجدداً ليرد صدراً على عَجُزٍ ؛ فيرجع للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مولاي قلت الشعر فيك مردداً ومغرداً" فيتخذ من خاتمته منصة لتمجيد نفسه وشعره ، حتى أنه تناسى الغرض الرئيس من القصيدة وجعل ختامها مدحة لشعره وكان الأَوْلَى بهذا البيت الممدوح لا المادح ، فحلته على رسول الله أوقع وأليق منها على شعر الرجل :

مولاي قلت الشعر فيك مردداً ومغردا

أنا بلبل الوادي ، بحبك فوق أيكته شدا

شعري يظل فم الزمان له بفضلك منشدا

يفنى الأنام وإنه يبقى الحياة مخلدا

وفي قصيدة "هكذا أغني"، من بحر الخفيف ، التي كتبها مهنئاً صديقه الشاعر محمود حسن إسماعيل بصدور ديوانه الثاني "هكذا أغني"، نجد أن ذاتيته الحاضرة في الشعر تدفعه للمقارنة بين شعر محمود حسن إسماعيل وشعره، منتهجاً نهجه المعهود في التواضع وإعطاء

كل ذي حق حقه؛ فيرى في شعر محمود حسن إسماعيل سحراً يدفعه ليقول: (أين منه على المزاهر لحني) .

إلا أننا نلاحظ أن ذاتية الشاعر في قصيدته "ترحيب"، من مجزوء الكامل ، قد خفتت أمام شخصية عزيز أباظة الشاعر ومدير مديرية أسيوط، بينما لم تخفت أمام الملك فاروق ، وربما ذلك لأمرين ، أولهما أن قصيدته في فاروق لم تكن سوى مدحةِ شاعر لم يواجه الملك بها ولم يلقها على مسامعه مشافهة ، بينما قصيدته في مدح عزيز أباظة والترحيب به كانت مشهودة سمعها الضيف بنفسه .

والآخر أن سلطان الشعر أغلب ونسبه بين الشعراء أقرب ، فهو عصبية ورحم بينهم ، لذا يتواضع عبد الحفيظ النسر شاعراً أمام عزيز أباظة لأن الشعر علم والتواضع في العلم مرغوب ، لكنه لا يتواضع فيما يمس هذا الجانب من ذاته وذاتيته أمام أي إنسان حتى وإن كان الملك فاروق نفسه ما دام الرجل ليس له سلطان في بلاط الشعر ، إضافة إلى أن من علامات التقى عند المسلم ألا يحرص على أن يكون له عند السلطان وجه .

ومن سمات الذاتية لدى الشاعر عبد الحفيظ النسر ومن صفاته المميزة : الاستقلالُ الفكري وعدم التبعية لفكر أو سياسة أو سيادة ؛ وقد قدم شعرُه صورةً مُثلى لشاعره في هذا الصدد ، فالشاعر في تحيته لثورة يوليو يخاطب الرئيس محمد نجيب ، ويصفه بأنه أمل مصر رامزاً إلى ثورة يوليو ، ويصف نفسه ومن معه بالإيمان والعزة والطهر ، وقد تحدث عن أثر الثورة على الوطن بعامة وعلى الفلاح والعامل بخاصة ، وعن دحرها لعصابة الأحزاب والسلطان والهوى ..

كما أنه "في الذكرى الثامنة لفقيد الوطن محمد محمود باشا"، ينظم قصيدة من الكامل تدل على نوع مميز من الوفاء ، إذ لا سلطان لمحمد محمود باشا ولا أثر لنفوذه ، فلا يتوقع أن نجد بعد ثمان سنوات من يتذكر سياسياً ، وهذا هو الواقع إذ تدل قصيدة الشاعر على أنه تذكر منه الجانب الإنساني أو الأثر الإنساني للسياسي الذي لم يكن صاحب دولة بقدر ما كان مجاهداً في الميدان الاجتماعي ، مما جعل ذكره عطراً يفوح شذاه في كل محفل في الدساكر والقرى والمراكز والمدن ، فهو فيها يصارع القيود والفساد ، نلاحظ ههنا ذلك الوفاء المميز من الشاعر ، الذي يكاد يكون غريباً ، فهو يمدح محمد نجيب في حين مدح المادحون جمال عبد الناصر ، ويمدح محمد محمود باشا صاحب الدولة بعد أن

دالت دولته ثم قضى نحبه بثمان سنوات ، فهذا الشاعر ليس سوى وفيٍّ مترّه عن الطمع والطموح .

ونأتي إلى نوع خاص من الذاتية لدى الشاعر ففي المقطوعة الثالثة ، من الرمل ، من قصيدته خواطر ، يرى الشاعر أنه وصل لدرجة من القوة الذاتية لا يرى معها تأثيراً للحب قرباً أو بعداً عليه ، فهو غالب على قلبه إذا هفا ومال سحقه .

أنا أظن أن هذه الخواطر متغايرة احتال الشاعر لجمعها تحت عنوان واحد ، فالخاطرة الأولى ذات مقصد قومي سياسي ، والثانية اجتماعي والثلاثة ذاتي عاطفي .

وهو في حد ذاته نوع من الذاتية أيضاً ، يرى معه الشاعر قيمة مثلى لكل نتاج عقله فيتحايل على جمعه في صورة مثلى حتى لا يبدو شتاتا .

* الشعر الفكه :

في قصيدة "وجود غير مرغوب فيه"، من الطويل ، يتراءى لنا نمط من الذاتية ، ذاتية فيها الكثير من الحديث عن الذات ممتزجاً بالسخرية والتهكم ، بعد الجد والحزم ، ففي جد أشار الشاعر إلى مدى ما يستعمر نفسه من هم وحزن وسأم من الحياة لما يراه منها من مساءات ، ثم يشهد بأنها لم تستخف بكرامته ، وينطلق ساخراً متهكما معولاً على مصر وأحوالها التي يروق معها عذب نيلها للمغتصب ولا يروق ويحلو لمصري ، ويفوز المغتصب بالخير والعزة ، بينما الفلاّح المصري يتقلب في الوحل ؛ كما يذكر الدستور والأسطول والتجارة .. وهذه القصيدة تنتمي إلى الشعر الحلمنتيشي ، أو أراد لها الشاعر ذلك وإن كان نصفها الأول ينتمي إلى القصيدة الجادة غير الهازلة .

وعلى منوالها جاءت قصيدته "ليتني كنت في الحياة غنياً"، من الخفيف التام ، لتثبت أن للشاعر باعاً في الشعر الفكه ؛ وله إلى ذلك مداخل منها الشعر الحلمنتيشي أو السخرية والتهكم ، وهو في هذه القصيدة قد استخدم أسلوب المفارقة والتعريض لتعميق وقع السخرية وتكثيف التهكم من إحدى الصور الاجتماعية التي بليت بها مصر ، والتي ترجع إلى ما يمكننا بتسميته إفراغ القيمة وفراغ القيم :

ليتني كنت في الحياة غنياً ∴ فتكون الحياة طوع يديا

فإذا كنت في الحياة بليداً ∴ ضيق الفكر جاهلاً وغبياً

زعم الناس أنني عبقري .:. وليس إلاي في الحياة ذكيا
وإذا كنت أبخل الناس طراً .:. كنت في زعمهم كريماً سخياً
وإذا كنت في الحياة ضعيفاً .:. صرت فيهم كما أرادوا قوياً
ليتني كنت في الحياة غنياً .:. فيرى الناس في قيودي حليا
وأرى الدهر والأنام عبيدي .:. رهن لفظ يبين من شفتيا
يعبس الكون إن عبست ويبقى .:. دهرهم إن تبسمت صفواً هنياً

وتحتشد معاني القصيدة بالتهكم والسخرية والتعريض بالدنيا وأهل الزمان من المنـــافقين المنتفعين والمتسلقين والطامعين ، فهم الذين يزينون للغني قبح نفسه ويرون لديه من حميد الخصال ما ليس فيه ، وما ذاك إلا لماله .

ثانياً : العاطفة الدينية

تظلنا هذه الأيام مناسبة دينية مباركة كأنها الظلة في هجير زمننا المؤسي إنها ذكرى ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، تعود إلينا مسافرة عبر الزمن لتجدنا وقد تردت أحوالنا لبعدنا عن ضوء نوره واتصال طريقه فضللنا وهانت على العالمين أمورنا وأنفسنا ..

لذا وجدت في الحديث عن العاطفة الدينية لدى الشاعر منطلقاً جميلاً للتذكير بما ذكر به آباؤنا ، قدماؤهم ومحدثوهم ، ويُعد الشاعر عبد الحفيظ النسر واحداً منهم .

إن العاطفة الدينية عند الشاعر النسر كألماسة ذات ظلال كلما أتيتها من جهة رأيت فيها المثال ، فهي تارة تأتي مقترنة بنفسه الطيبة وشعوره الديني الدافق ، وتارة تـــأتي مقترنـــة بالنماذج والمثل العليا في الدين كالنبي صلى الله عليه وسلم ، وتارة تأتي ممتزجة بعاطفـــة الوطنية المشبعة بقوميته العربية وتارة تأتي معانقة لمشاعره الاجتماعية ، لذا كان الشـــاعر عبد الحفيظ النسر أنموذجاً ومثالاً للشاعر المسلم الذي يمتزج وجدانه وعاطفته الدينيـــة بأحواله الدنيوية ، وإن تنوعت وشط بعضها مبتعداً عن بعض ، فالدين عنده ليس مجـــرد ملة يعتنقها وحسب ، وإنما هو عاطفة مميزة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بشخصه وشخصـــيته ، أشبه ببصمة الإصبع في يده ونبرة الصوت في حديثه وسريان الدم في جسده ..

ويعد الاتجاه الديني من أبرز ما سلكه الشعر في تلك الحقبة بعامة ، ويفسر لنا هذا، عدة أمور منها :

أولا : حركة الإصلاح الديني التي قادها الإخوان المسلمون ، وعنايتها البالغة بربط حاضر الأمة بماضيها، وهي تعد نقطة تحول بارزة في تاريخها السياسي والفكري والحضاري .

ثانيا : الوقوف عند السيرورة التاريخية، أي أنّ الصراع الذي قام بين الحركات الوطنية والاستعمار هو في جوهره صراع ديني قائم على الخداع قبل أن يكون حربا استعمارية ؛ وقد كان هذا الخداع حتى لا تتحرك العاطفة الدينية عند المسلمين، فيهبوا للدفاع عن دينهم لأنه من مصلحة المستعمر ألاّ يفهم المسلمون هذه الحقيقة .

ثالثا: انخراط عدد كبير من شعراء ما قبل الثورة في حركة الإخوان المسلمين الإصلاحية .

وأول ما يلقانا من قصائد الشاعر عبد الحفيظ النسر قصيدة دينية ؛ هي قصيدته يارب وهي من مجزوء الوافر ، يبرز الشاعر في تلك القصيدة، نزوعه الديني واتخاذه ربه ملاذاً لروحه الحائرة:

إذا ما طاف بي كرب .:. دعوتك أنت يا رب

معللاً ذلك بأن الله عز وجل هو ركنه الركين وجنبه الأمين لذا يهرع إليه عند الكرب :

إلهي أنت لي ركن .:. إلهي أنت لي جنب

دعوتك آملاً فرجاً .:. دعوتك أنت يا رب

فهبت نسمة نشوى .:. تلاشت بعدها السحب

إنه يرجو الله فيجيبه الله رجاءه ؛ تبرز في هذه القصيدة قيم من أهمها الإيمان بالله والوثوق في رحمته وإجابته الدعاء والتسليم بكل ما يتعلق بهذه الأمور من قيم دينية .

ولأن العاطفة الدينية كما أشرت من قبل عاطفة ذات نزوع إصلاحي قائم وفقاً لأفكار جماعة الإخوان المسلمين ، نجدها ملتبسة بالإصلاح السياسي ممتزجت بالهم القومي العام فقصيدته لئلا ننسى : من مجزوء الوافر ، كتبها بمناسبة خروج أحد أصدقائه ويسمى

"شديد"، من معتقل الطور السياسي ، ويبدو أنه كان من جماعة الإخوان المسلمين أيضاً ، يصف الشاعر صاحبه بأنه يملك جرأة كبرى ، ترسخ لدى القارئ صورة ذلك السياسي الأسير المعتقَل بفتح القاف ، أو المعتقِل سجانه لأنه لا يخشاه ، يقول :

"شديد" أيا مثال العزم .:. والإيمان والطهر
هزأت بحارس السجن .:. ولم تجزع من الأسر
هتفت وأنت في الأعماق .:. لا دنيا ولا دين
ولا حـــكم لمأفـــون .:. ولا بـــاغ ولا دون
هتفت تكـــبر الرحمن .:. في ســـاح الشياطين

وقد يغالي الشاعر في رؤيته العاطفية لبعض الرموز الدينية أحياناً لدرجة قد يقبلـــها أو لا يتقبلها العقل ؛ ففي قصيدته "منقذ البشرية" من مجزوء الكامل ، نلمس في نمطـــاً مـــن الروح الصوفية الخاصة جداً المميزة للمصريين ، وهو نمط يتجلى في أسلوب نظـــرتهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمه لدرجة فيها مبالغة لا يقبلها الإسلام ولا يقرها الله ولا الرسول :

أمحمـــد وقلـــوبنـــا .:. أضحت لحـــبك معـــبداً
كادت لنورك – هادياً - .:. لولا التقى أن تسجداً

وقد قادته حماسته في بعض المواطن إلى ما يمكن أن نطلق عليه الدلالة المنقطعة، فيقول مثلاً:

في أمة كانت تفاخر بالضلالة محتدا
أنقذتها من وهدة الظلم المخيم والردى
أساسه الإيمان والخلق المطهر والندى

وكأن الظلمَ المخيمَ أو الردى هو الذي يتخذ من الإيمان والخلق المطهر والندى أساســـاً، فالمعنى لا يتسق، ولا بد من تصور قطع في الدلالة نجم عن سقوط أبيات أو تســـارع إلى الصوغ .

ومن شدة ارتباطه الوجداني بالدين ونزوعه المذهبي والفكري نحوه ، نجده حتى في ترحيبه بمدير مديرية أسيوط يصف زمرة المستقبلين والمحتفين به بأنهم عصبة جمعتهم محبة الله ورفعوا لواءه :

إخوان صدق لا ترى .:. فيهم فتى مترددا
جمعتهمو عصبية في الله آزرها الهدى
رفعوا لواء الدين رفاف البنود مؤيدا
ورأوا كتاب الله دستور الحياة المرشدا
وسموا على الأهواء فاتخذوا الإمام محمدا

ويربط كذلك بين الملك فاروق والإسلام ، فيقول :

ملك لكم أسدى إلى الإسلام في الجَلَّى يدا
فغدا لأبناء الحنيفة والعروبة سيدا
يسمو بهم نحو العلا ويرى الطريق ممهدا
سيرد عادية الزمان ويستذل من اعتدى

- مدح النبي :

ويظل مدح النبي محمد صلى الله عليه وسلم موصولاً على مدار القصائد ، في مواطن شتى منها الصريح المباشر في قصائد مخصوصة ومنها المضمن في مناسبات مناسبة ، ففي قصيدته "مولد النور" من المجتث ؛ يدعو الشاعر في قصيدته مولد النبي ليشرق على ربوع البرية ، ويرحب بالنبي صلى الله عليه وسلم ومولده ، ثم يتحدث عن دور الرسول المعلم ، في الدعوة مشيداً برحمته بالناس ورأفته بهم ، وتحدث عن أثر دعوته على الدنيا ثم يدعو المسلمين إلى الاعتصام بالدين والعودة إليه ، وهي دعوة الشاعر الرئيسة في كل مناسبة وموضوع :

عودوا إلى الدين صفا .:. ففيه حل القضية

ومن قصائده في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم قصيدة "يا يوم ميلاد النبي"، من الكامل التام ، التي بدأها بمخاطبة يوم ميلاد النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، واصفاً هذا اليوم بأنه ذكرى تعذر في الحياة مثالها :

ذكرى تعذر في الحياة مثالها .:. أحنى لروعتها الجابر هاما

ثم يتتبع بعضاً من إرهاصات الميلاد التي سبقت مولده صلى الله عليه وسلم ، ثم يتوجه بالحديث إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، متخذاً من ذلك اليوم منفذاً للحديث عن الأجواء التي أحاطت بالإسلام والمسلمين وحال الدنيا آنذاك ؛ ثم يدلي بدلوه معبراً عن رؤيته للإسلام :

إني أرى الإسلام عزة شامخ .:. وأرى عداه أذلة أقزاماً

إن حاولوا - فرط الضلالة – نيله .:. يرنو إليهم مشفقاً بساما

نلاحظ هنا أنه أسقط حرف الجر (من) حتى يستقيم الوزن العروضي والأصل " من فرط الضلالة ".

ثم ينادي المصطفى حال انطلاقه إلى يثرب ويذكر الغار مخاطباً إياه وكأنه يذكره بدوره ومكانته في تاريخ الإسلام :

لما حللت الغار هلل وانتشى .:. طرباً وأرسل شدوه أنغاماً

غار أرى الدنيا لديه تجمعت .:. ترنو لمجد صخوره إعظاما

وله في حب النبي محمد صلى الله عليه وسلم قصائد عديدة من بينها أيضاً قصيدة بعنوان "حب محمد" من الكامل ، إلا أنها غير مثبتة في الديوان وإنما أثبت الراقم نصف أبياتها ، أعاريضها وحسب ، ثم كرر تلك الأعاريض بوصفها أضرباً فالراقم كتب مثلاً :

إني أقول الشعر في هذا النديّ .:. إني أقول الشعر في هذا النديّ

ومن الجوانب المشرقة في الإسلام دعوته للهجرة ، وقد تمثلها الشاعر كما أرادها الإسلام تماماً ، بعقل راجح وفطرة سليمة ، ففي قصيدته من الكامل التام "الهجرة"، يبدأ بالحديث عن الهلال الذي يحمل مع مقدمه ذكرى الهجرة المباركة ، وأسباب تلك الهجرة ومقدماتها ، ويصور أحداثها منذ البدء وحتى النهاية .

وينهي قصيدته التي سماها الهجرة بحكمة فيها صرامة قاطعة ، فمن لم يهاجر للعلا بعزيمة جبارة فبقاؤه كفنائه ؛ فالشاعر قد حول قصيدته بعد الرصد التاريخي للهجرة إلى دعوة صريحة للهجرة الحقة التي نحن بحاجة إليها اليوم ؛ فيقارن بين ماضي المسلمين وحاضرهم،

ويعرض نماذج للمسلمين المحدثين ، ثم لآبائهم ، ويدعونا بعدها للهجرة التي دعانا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قيل وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ، قال جهاد النفس ..

ثم لا يترك الشاعر الأمر على عواهنه بل ينهي قصيدته برؤيته للمسلم الحق الأنموذج الذي يدعونا للاحتذاء والإقتداء به ، وتمثل ملامحه الدينية ، فتلك الرؤية حتى وإن قبلنا منها ورددنا إلا أننا لا نملك إلا محبة النموذج الذي قدمه لنا ، فالهجرة عند الشاعر عبد الحفيظ النسر هجرة انتقال ، تاريخيا من مكان إلى مكان ، ووجدانياً من خلق دني إلى خلق عليّ .

ومن نزوعه الديني رؤيته لليلة القدر ، إذ يصور في قصيدة "ليلة القدر"، تلك الليلة ، بأنها ليلة كالضوء يبزغ في ظلمات عصرنا ، وأنها صوت الأمن في دنيا الحروب . وفي تلك القصيدة يقارن الشاعر بين الحياة قبل نزول القرآن وبعده ، ومدى تغير الأحوال من ظلام وخصام إلى نور وسلام :

كانت الدنيا عماء وظلاما .:. فاستضاء الكون بالهدي المبين
كانت الدنيا عراكا وخصاما .:. وحزازات وبغيا في جنون
فإذاها بعده تغدو سلاماً .:. لا أذى يضني ولا شكوى أنين

وقد ضمّن الشاعرُ قصيدته استراتيجيته في الشعر الديني وأودعها سر عاطفته الدينية واتجاهها وهدفها ، فيقول الشاعر :

أنا لا أدعوه مالاً أو بنيناً .:. أنا لا أرجو على الأيام جاها
أنا لا أرجو على العمر سنينا .:. قد أقضيها هباءً وسفاها
إنني أرجوه نصر المسلمينا .:. فأرى الدنيا بهم فاض سناها
وأرى الإسلام في الدنيا مكينا .:. هذه أمنيتي مالي سواها
رب أصلحها وأصلح حالنا .:. وأنلنا – رب – ما نصبو إليه
من ترى يقضي لنا آمالنا .:. غير من نودعها طراً لديه

في قصيدة "يا بني الإسلام هبوا" ، من مجزوء الرمل ، لخص الشاعر أمله المرتجى من أمة الإسلام ، وهنا يتجلى لنا انتماؤه الأيديولوجي المرتبط بجماعة الإخوان المسلمين ، ومدى تأثيرها فيه ، ورؤيته لدورها في عصرها الذهبي ، مؤكداً أنهم أحيوا الدين من جديد كما أعادوا روح العزم والعزة لدى المسلمين :

أيقظ الإخوان فينا .:. روح أحمد لن تبيدا
علمونا كيف نأبى .:. أن نُرى يوماً عبيدا

في مقطوعته "بحق طه"، من المجتث ، يعرض الشاعر في هذه المقطوعة تجربة قلب ثابت لا تهزه الفتن ولا تلتبس عليه الشبهات ، لذا لا يستطيعه إبليس مهما أحدق بها غواية أو إضلالاً ، ويعزي ذلك إلى تحصنه بالدين واقتدائه برجاله ويدعو الله أن يثبت فؤاده بحق النبي صلى الله عليه وسلم وآله :

يا رب ثبت فؤادي بحق طه وآله

إن العاطفة الدينية عند الشاعر ليست مجرد فكرة أو اعتناق مذهب إنها حياة تمتزج روحها بروحه لدرجة يتمنى معها لو أنه كان شعاع هداية :

تمنيت لو أني شعاع هداية .:. فيغمر نوري قلب من كان جاحدا
ويهدي الذي قد ضل عن سنن الهدى .:. ويؤمن بالديان من كان ملحدا

ويختم ديوانه بقصيدتين أولاهما أهلاً بخالد ، من المجتث ، والثانية أهلا بمروان من مجزوء الكامل ، والقصيدتان إلى حفيديه خالد ومروان بمناسبة مولد كل منهما .
وكان آخر بيت في المجموعة يخاطب به مروان قائلاً :

هيا فإني في انتظارك حاضراً ومسافرا

مخلقاً دلالة متصلة وترقباً لا يأفل ، يؤكد على وجود الشاعر الأبدي في حياة الحفيدين وتظليله لسمائهما وترقبه تفوقهما في الحياة وإن كان أكثر تشديداً على الدعوة الدينية لخالد إلا أن العاطفة الدينية قائمة في النص الآخر لمروان :

إن قلت "بابا" في المدينة ، جاء لفظك سكراً

عند النبي هناك يلتمس الرضا مستغفرا

مستغفراً لأبيه عن زلاته ما عمر

وهنا نوع من تواصل الأجيال يوحي بمدى ثراء عالم هذا الشاعر العظيم .

رحم الله عبد الحفيظ النسر رحمة واسعة وقيض الله لأغانيه الذيوع فهي جديرة بذلك لما تحمله من قيم عز مثيلها لدى شعرائنا اليوم .

- الغـــــار :

* يصف الغار الذي آوى إليه الرسول صلى الله عليه وسلم في هجرته بأنه غار الهدى:

حتى إذا جاؤا إلى غار الهدى .:. ضلوا وتاه الجمع في بيدائه

ولا يخفى ما في البيت من مقابلة ، والشاعر هنا بعد أن أتم وصف الغار في قصيدة " يـــا يوم ميلاد النبي " متحدثاً عن حاله يوم الهجرة وقيمته الدينية لـــدى المســـلمين ، نجـــده يتحدث في هذه القصيدة عن الأحداث التي تمت في الغار ليســـتكمل دائـــرة الفكـــرة بالحديث عن المكان وما وقع فيه :

لما ثوى في الغار حل بأرضه .:. طهر سرى كالنور في أنحائه

نسجت عليه العنكبوت خيوطها .:. فبدت معاني الفقر في سيمائه

وحمائم الإنقاذ راحت من هوى .:. تبني عشاش الحب في أرجائه

نامت عيون المصطفى ، وفؤاده يقظ ، يناجي الله في عليائه

وبجنبه الصديق ملء فؤاده .:. حب كفيض الطهر في أحنائه

ثالثاً : المقارنة بين الماضي والحاضر

اعتنى الشاعر بتكثيف المقارنة بين حاضر الأمة وماضيها والمقارنـــة بـــين الشـــرق والغرب، ملتمساً في ذلك طريقاً إلى بعث اليقظة الاجتماعية والدينية لدى المسلمين ، فلم يترك فرصة للمقارنة إلا اهتبلها وساق خلالها الفارق الحضاري والقيمي بـــين مســـلمي اليوم ومسلمي الأمس ، وكشف عن خرافة التفوق الحضاري الغربي .

ومن القصائد التي عالجت الحالة المتردية لحاضر المسلمين قصيدته في استنفار الهمم "هلموا هلموا لحمل اللواء" ففي هذه القصيدة يدعو الشاعر أمة المسلمين إلى العودة لأصول دينهم والاعتصام بوحدتهم في وجه الطغاة وكأنه يقلب معنا اليوم بكلماته المترعة بالحيوية والفتوة والصفاء كتابَ اليوم ، فها هو صوته كأنه صوت اليوم لا الأمس، تدعمه حكمة رصينة موجزة وعميقة دقيقة المغزى جلية المعنى واضحة الهدف.

وتبرز عاطفته الدينية خلال هذه القصيدة منذ البداية إذ لا لواء إلا لواء الإسلام والدعوة لحمله ليست دعوة الشاعر وإنما هي من عند الله (دعا الله أن انقذوا مجدكم) ، محدداً إطار وميدان الدعوة وسلاح الميدان ، يقول :

ليس سوى الدين من مأمل .:. لمجد الخلود ومجد الحياة

فيتجلى الدرس الاجتماعي للدين مرتبطاً بالعمق التاريخي ، فهو يستقرئ واقع اليوم بشموسه الآفلة ، ويرسم لنا الطريق قدماً نحو استعادة المجد القديم الذي لن نصل إليه إلا عن طريق الدين الحنيف الذي كفل لنا السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة :

ألم يك أسلافنا سادة .:. أذلوا الكماة وهدوا العتاة

فما بالنا اليوم لا المجد دام .:. ولا نحن للمجد مسترجعين

وما بالنا اليوم صرنا إلى .:. حضيض المذلة مستعبدين

تركنا تعاليم قرآننا .:. فصرنا بذلك في الخاسرين

وفي قصيدته منقذ البشرية ، يذكر أحوال المسلمين إثر حديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فبعد أن ساد المسلمون الدنيا نكصوا على أدبارهم خاسرين في تقاعس وخذلان، فصاروا أعبد وأذل مما كانوا قبل الإسلام :

بالأمس كنا سادة الدنيا وأعلام الهدى

سل قيصراً ما باله في الأرض بات مشردا

فغدا وأصغر مسلم أضحى لقيصر سيدا

واليوم – يا لخطيئة الدنيا غدونا أعبدا

مالي أرى الإسلام بين العالمين مصفدا

ثم صال الشاعر وجال في تعداد المظاهر الكبرى الدالة على تردي أحوال المسلمين في العصر الحاضر، مستعيناً ببعض الفلسفات غير الإسلامية، مثل فكرة قيامة عيسى عليه السلام، فنراه ينادي النبي محمداً صلى الله عليه وسلم يدعوه للقيام ليشهد أحوال المسلمين :

قم يا محمد وانظر الإسلام كيف اسْتُعْبِدَا

ثم تخلص من حديثه عن أحوال المسلمين وحاضرهم ليتحول للحديث عن المستقبل الذي يتفاءل بما ينتظر المسلمين فيه من عزة وعودة إلى الازدهار والزهو والمجد الديني والحضاري من جديد :

إن كان حاضرنا أسى يضني فإن لنا غدا
سنعيد عهد الراشدين مؤزراً وممجدا
سنعيد مجد المسلمين معززاً ومؤيدا
سنرد عادية الزمان ونستذل من اعتدى
حتى نرى الإسلام رفاف اللواء مسودا

ونلاحظ أن الشاعر في تفاؤله يسند الأفعال كلها إلى ضمير الجماعة "نحن": (سنعيد – سنرد – نستذل – نرى) ؛ وكأنه يؤكد على أهمية الاجتماع بعد أن رأينا ذل الفرقة والشتات .

ولأن الشاعر ينطلق في رصده للواقع الإسلامي من قاعدة ورؤية واقعيتين ، نجده عندما يتحدث عن العيد الذي هو في الأصل موكب عرس أيامه هنيئة ، في قصيدته "المسلمون في العيد" قصيدة من المجتث ، يرى أن المسلمين فيه يرفلون في أثواب الحزن ويمشون تثقل كواهلهم مآتم العرب ، مشيراً إلى الحرب العراقية الكويتية ثم حرب قوات التحالف ضد العراق ، لتحرير الكويت ، ويشير إلى حادثة مماثلة فيها ما يسمى بالحق التاريخي في الأرض ، فيتحدث عن طابا وكيف استردت مصر حقها التاريخي فيها بعقل حكيم وفطنة ذكية وروية وبعد نظر ، لا باختلاق جلبة وضجيج وعصبية كما فعل صدام حسين في ادعائه حقاً تاريخياً في الكويت ، والشاعر في قصيدته هذه ينظر إلى مصر بوصفها الملاذ للعرب ، عندما دفعهم صدام إلى متاهات الحرب العربية العربية .

ومن صنوف تلك المقارنة ما ورد في قصيدته "كونوا جميعاً" التي تتخذ من رؤية الشاعر لنبأ اعتزال مناحم بيجن الحياة السياسية موضوعاً لها ؛ فهو يتحدث عن مناحم بيجن بوصفه نسخة يهودية من نسخ متماثلة :

إن ينأ عن كرسيه أو يبق فيه مدى العمر
فهو المعجل بالمنايا والمفجر للشرر
خلفاؤه ورثوا كما ورث العداوة للبشر
والأصل إن يغرب فبالكربون آلاف الصور

ثم يتحدث عن اليهود أنفسهم :

دستورهم أسطورة قلب الحقائق والسير

أما موقف العرب منهم فهو موقف صاحب الثأر المنتظر :

لم ننس بعد مذابحاً جرت الدماء بها نهر
لم ننس ما فعلوه بالأطفال في بحر البقر

ويصور حال العرب مبرراً جرأة اليهود ومناحم بيجن فيها بأنه لا يجد من يردعه :

ممن يخاف وهؤلاء العرب شتى في الفكر
ممن يخاف وكلهم يتسابقون إلى الحفر
لولا خلافات الزعامة ما استبد ولا فجر
لولا .. ولولا .. لانحنى هذا الجبين وما ظهر

والشاعر يؤكد على أن غياب الدور والفاعلية العربيين هما السبب الرئيس وراء ما آل إليه حال العرب اليوم من تَرَدٍّ وانهيار ، ويحاول أن يكون فاعلاً فيقدم حلولاً للكبوة العربية ربما تقيلها من عثرتها تلك الحلول والتنظيرات ، مؤكداً أيضاً على الدور العقدي والحضاري لمصر :

أبني العروبة نومكم قد طال فاستبقوا الخطر
عودوا إلى الوعي القويم وقاوموا هذا الخدر
عودوا إلى القرآن واستافوا الرحيق من السور
عودوا إلى الإسلام تلتئم الصفوف وتنتصر

عودوا إلى الإسلام كيما تبلغوا أسمى وطر

عودوا لمصر فمصر حصن الدين في شتى العصر

ويرى الشاعر نتيجة مبشرة للالتئام والتوحد :

كونوا جميعاً يرهب العدوان منكم ما احتقر

فإذا الصفوف توحدت فر العدو أو اندحر

وفي قصيدته " يا ملكاً تزهو الحياة به" ؛ من البسيط ، التي نظمها الشاعر غداة تنصيب فاروق ملكاً على مصر عام ١٩٣٧م ، وإن كنا لا نأبه كثيراً بموضوع القصيدة وما جاء فيها من مبالغات تستدعيها المرحلة ، إلا أننا سنرى منها ما نحن معنيون به عند الشاعر الذي يحمل في وجدانه قلباً عامراً بالإيمان ، الدين فيه حي نابض يحاول إسباغ سمته وإضفاء ملامحه على كل ما يراه أو على الأدق يرى من خلاله الأشياء على تنوعها ، فيجد أن عليه أن يتحدث إلى فاروق بشأن الدين في مصر بل إنه يمتدح فاروق بقربه من الإسلام وتمثله أنموذج العدل الإسلامي بعد الرسول صلى الله عليه وسلم : الفاروق عمر ، فهنا تتحدد ملامح الممدوح تبعاً لأيديولوجية المادح وأفكاره ومذهبه :

فاروق يا خلف الفاروق إن بنا .:. لعهده صبوة .. الآن نبديها

فأنت للدين حصن لا تزعزعه .:. ريح الضلال وإن هبت سواقيها

فالشاعر يرى أن الدين في مصر كان مهملاً حتى جاء فاروق فجعل من الدين شمساً تشرق في دياجي الظلام :

بالأمس قد أهملت ديناً وما حفلت .:. إلا بدنيا تعادي من يواليها

واليوم تمشي على أعقاب سيدها .:. من صير الدين شمساً في دياجيها

وفي غد سوف تبقى للتقى مثلاً ويصبح الدين قاضيها وهاديها

ثم يتحدث عن حال العروبة التي ترفل في الظلم والجور ، ثم ينهي القصيدة بالدعاء للملك أن يديمه الله ناصراً للإسلام ، وللعروبة ليرعاها ويعلي من شأنها .

وفي قصيدته "يا يوم ميلاد النبي" من الكامل بعد سرد تاريخي لجانب من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، يتوجه الشاعر بالحديث إلى أبناء الإسلام ، مقارناً بين الماضي والحاضر :

ما لي أرى الإسلام يصرخ فيكمو .:. وأراكمو رغم الزئير نياما

ما لي أراكم في الكلام بواسلا .:. تتشدقون ولا أرى إقداما

ثم يتوجه بالحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يا منقذ الدنيا وسر نجائها .:. ومحيل ظلمتها سنى بساما

ذكراك في دنيا الورى أغرودة .:. ملأت سماء العالمين سلاما

في قصيدته " الهجرة" ، بعد تكريس طرفاً من الحديث عن الماضي يتحول الشاعر إلى الحاضر مقارناً بين حالي الملمين قديماً وحديثاً ، وتحديداً في حقبة الرسول صلى الله عليه وسلم في يثرب وبين الحاضر الذي يعيش فيه المسلمون اليوم ، ثم يقترح ناصحاً الدواء الذي يدرأ عن بني الإسلام ما هم فيه من ضياع ، وهو ينصح بالعودة إلى الإسلام والقرآن وهدي النبي صلى الله عليه وسلم ، ويعرض نماذج لمسلمين اليوم ، ويعجب لنعتهم بالمسلمين ، ويتساءل منكراً :

هل مسلم ذاك الذي لعبت به أهواؤه فمشى إلى أهوائه؟

هل مسلم ذاك الذي قد أتخمت أمعاؤه ، والنار في أمعائه ؟

هل مسلم ذاك الذي لا يبتغي مجداً ولا يرنو إلى عليائه؟

هل مسلم ذاك الذي قصرت به في الأرض همته بموت إبائه ؟

ثم يقارن كذلك بين مسلم اليوم وآبائه الأولين :

يرضى الدنية في الحياة ، خليقة ما شامها أحد على آبائه

كانوا الكماة الصيد ، .....

كانوا الأسود .....

كانوا النسور .....

فهو يرى أن المسلم الحق هو الذي يصحح أوضاع نفسه ويجلو خطوبه في شجاعة لا تندحر وقوة لا تلين :

المسلم الحق ، الذي بيمينه يجلو الخطوب السود في أجوائه

وفي قصيدته "ذكرى غزوة بدر الكبرى" ، من مجزوء الخفيف ، يؤرخ الشاعر لذكرى غزوة بدر ، ملخصاً أحداثها كما فعل مع الهجرة في قصيدة الهجرة ، ولكني

ألاحظ على الشاعر ميله للتفاعل مع أحداثه التي يقدمها لنا ، وكأنه ينقل صوره من موقع الأحداث كأنه يعلق على أحداث الغزوة من ميدان القتال ، فهو يقول مثلاً :

من ترى ذاك الذي جندلته سيوفهم

ذا أبو جهل قد بغى وانتوى الغدر فانحطم

إنه أشبه بمن يرى ويرصد ويتابع ما يحدث عن كثب .

ثم بحسب عادته يقارن بين ما يقدمه من ذكريات الماضي وقيمه ومعانيه ، الماضي الماثل في ذهنه حياً فتياً كأنه يعيش في أجوائه وتحويه أحواله ، وبين الحاضر المتردي للمسلمين الذين ضلوا عن هدي دينهم وتنكبوا طريقه حتى ذهلوا عن أنفسهم فلم يعرفوا أين هم ، كتائه في فلاة لا يستبين من علمه إلا جهلاً ولا يهتدي إلا لضلال :

تلك بدر ،فهل درى .:. مسلمو الأرض أين هم

قد غدونا أذلة .:. وعيالاً على الأمم

ويضع يده على عدد من مواطن الداء ، ومن ذلك فخر المسلمين بالتخاذل والتواني وارتكانهم إلى ما مضى من فخار الأسلاف ، وقد استبد بنا الضعف والكبر بينما الحق الذي يجب علينا اتباعه هو الفخر بما في كتاب الله وهو الفخر بمدى التزامنا به فهو قوتنا الحقة ، ويعرِّض بحال المسلمين اليوم ، الذين أصبحوا أهون الأمم بعد أن كانوا سادة الأرض ، ويفصّل حديثاً قصيراً حول فلسطين واستبداد اليهود بها ، بينما اكتفينا نحن بالصبر على الأذى متناسين العزة والشمم :

قد صبرنا على الأذى ورضينا بما قسم

أين يا قوم عزة المسلم الحق والشمم

ويدعونا الشاعر لنفض غبار الذلة والركون إلى الخذلان لكي يحسم الأمر الذي لا تحسمه الخطب والقصائد إذ يكتب المجد بالدماء لا بما ينفث القلم .

* وكعادته أيضاً يتحدث عن ذاته وشعره وعمله في ديباجته وصوغه :

ليس شعري قوافياً .:. ساحرات من الكلم

إن شعري صواعق ليتها تكشف الظلم

إن شعري قنابل ليتها تبعث الهمم

صغته من جوانحي فيه نار وفيه دم

- فلسطين :

ولعل قضية فلسطين من أبرز قضايا الحاضر العربي الإسلامي ، وقد عالج الشاعر تلك القضية في أكثر من موطن في ديوانه ومن ذلك قصيدته "المسجد الأقصى يئن"؛ من بحر الكامل ، إذ يستحث الشاعر المسلمين على تذكر فلسطين جرح العرب ، والعناية بقضيتها ، ويستحضر موكب النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة الإسراء والمعراج ، ثم يقارن بين ماضي المسجد وحاضره ، وما تعاور من أحوال مؤسفة على فلسطين في تلك الأزمنة :

بالأمس كانت لحننا نشدو به .:. فتجيبنا الأفلاك والبيداء
واليوم نذكرها بقلب موجع .:. لما سطا الذؤبان والدخلاء

ثم يسرد مأساة فلسطين مع اليهود ووعد بلفور المشئوم ؛ ويرى أننا لما نزل أمة باقية لأن منا من استمسك بكتاب الله وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ولولا ذلك لقضينا وطمرت آثارنا ، ويشير صراحاً إلى أن أعداء الإسلام الأول هم الخلفاء وهدفهم إطفاء نور محمد صلى الله عليه وسلم :

حلفاؤنا رفقاً بنا فوعودكم .:. كذب وصدق عهودكم إغواء
الويل للإسلام من حلفائه .:. والله إنهموا له أعداء
يبغون إطفاءً لنور محمد .:. وقد استمدت من سناه ذكاء

ثم يفند دعاواهم بالرخاء والحرية والعدل والمساواة ، لأن التجربة أثبتت كذب دعاواهم ، فهم قتلة مجرمون ، وتشهد الدنيا كلها على ما ارتكبوه من جرائم :

زعموا نفوسهم ملائك رحمة .:. من كفهم تتفجر النعماء
الله أرسلهم لإسعاد الورى !!! .:. دستورهم حرية وإخاء !!!
كذب لعمر الحق ليس يسيغه .:. عقل ولا يرضى به عقلاء

ثم يقدم صورة لما يحدث بفلسطين :

هذي فلسطين الشهيدة ريع في أنحائها أهل ودك بناء

ولم ينس الإشارة إلى تآزر عصبة المتكالبين والمتآمرين والمتآمرين والمتمالئين ضد العرب والمسلمين ، فأشار إلى صلة اليهود بالإنجليز وعلاقتهما بما حدث في فلسطين :

هذا الذي فعل اليهود بأرضنا .:. والإنجليز ، فإنهم شركاء

وفند عليهم أمرهم ، فلا آدم يرضى بما يحدث هناك ولا حواء ، وهنا إشارة إلى أن الإنسانية جمعاء ممثلة في أصليها الأولين آدم وحواء تنبذ ذلك وتضج منه وتضجر ، وكما أن الإنسانية تستنكر ذلك ، فكذلك يستنكره الدين للحد الذي صور فيه الشاعر السيد المسيح باكياً والسيدة العذراء مريم متفجعة :

قد ضج آدم في سماء خلوده .:. مما جنوه وأعولت حواء

وبكى المسيح فسال دمع حنانه .:. وتفجعت من هوله العذراء

وأخيراً يستنهض همم المسلمين في كل الدنيا ويستحثهم للذود عن فلسطين الجريحة :

يا مسلمي الدنيا استبيح حماكمو .:. ظلماً وليس له الغداة وفاء

ونفوس إخوتكم تخر صريعة .:. يبكي عليها فيلق ولواء

مسرى الحبيب إلى القلوب محمد .:. عصفت به الأهواء والأنواء

إن لم تضحوا في سبيل بقائه .:. فالله منكم والرسول براء

وله قصيدة أخرى في مأساة فلسطين هي "فلسطين الشهيدة"، من مجزوء بحر الكامل ، تتكون القصيدة من خمسة مقاطع ، لكل مقطع منها قافية مستقلة ، وقد أراد الشاعر تنويع المقاطع كأنه ينتقي حالات غير متكاملة من مشهد الشهادة في فلسطين الشهيدة كما سماها ، إذ أن الشاعر وإن استفاض ، فلن يستطيع الإلمام بفظائع الإنجليز واليهود في فلسطين .

في المقاطع الثلاثة الأول من القصيدة يقدم الشاعر صوراً من أفاعيل اليهود في فلسطين ، وفي نهاية المقطع الثالث بدأت شمس الذاتية القومية تبزغ عند الشاعر :

ستريهم الأيام أن الأسد لا تدع العرين

فهو دائم الوصف للمسلمين المنتظرين المنذورين للنهضة بأنهم أسود .

وفي المقطع الرابع يستنهض الهمم ، همم المسلمين ويدعوهم لليقظة بعد الغفلة والانتباه لأحوال الأشقاء في فلسطين :

يا مسلمي الدنيا أفيقوا .:. وانظروا حال الشقيق

مدوا يدا لأخيكم .:. في ذلك الظرف الدقيق

ثم يخاطب في المقطع الخامس من قصيدته لجنة التقسيم وينذرهم بأن العرب الكرام لن يرضخوا لأحكامهم الظالمة وأن النصر بإذن الله في الغد للمسلمين .

كما يتحدث في قصيدته "ليلة القدر" عن قضية فلسطين الجريحة ، فيقول :

ذي فلسطين اشتكت آلامها .:. وتترت في نواحيها الجراح

ثم يدعو المسلمين للانتباه من غفلتهم :

مسلمي الأرض أفيقوا واستعدوا .:. إنما الدنيا لأقوى أمة

جاهدوا الكفار طراً ، وأعدوا .:. لهمو ما استطعتمو من قوة

وطنوا العزم على أن تستردوا .:. ما أضعتم في عهود الغفوة

وينصح المجاهدين بقوله :

أيها الأبطال دعكم من عسى .:. فهي لا ترجع مجد الوطن

ويدعو المسلمين إلى أن يعرفوا قدرهم في الدنيا ، ويهبوا للنهضة ، فلن يرحمهم أحد إن ظلوا في ركود وأنين :

لستموا أنتم بآساد الشرى .:. أنتم أجناد رب العالمين

فاعرفوا قدركمو في ذا الورى .:. لا تكونوا فيه بالمستعبدين

من ترى يرحمكم من يا ترى .:. إن ظللتم في ركود وأنين

ويصف في قصيدته "ليلة القدر" حال أمة الإسلام اليوم :

أمم الإسلام باتت في أسى .:. حطمتها عاديات الزمن

حوم البؤس عليها وكسا .:. أرضها الذل وشتى المحن

وثمة نوع آخر وأسلوب مغاير للنظر إلى الحاضر عند الشاعر نجده في قصيدته "خواطر"؛ ففي المقطوعة (أ) من الرمل ، يتحدث في قوة إلى المستعمر الباغي مستنكراً ما يفعله ضد الشرق والإسلام من استباحة الحرمات ، ثم يتوعد أولئك المستعمرين مستخدماً أسلوب الالتفات ليرمز به إلى مدى استهانته بذلك المستعمر وشعوره بوصفه مسلماً بالقوة الذاتية التي يستمدها من دينه وعقيدته . والمقطوعة (ب) من الخفيف ،

يتجلى في هذه المقطوعة مشاعر غير المعهودة من الشاعر محملة بنظرة متشائمة يخنقها ما يراه من ظلم وفساد وقسوة الواقع .

ثم يعري واقع الغرب ويميط عن وجوههم اللثام ويكشف عنهم غطاء التقدم والحضارة لتتجلى ملامحهم مفزعة مما تكتنزه من وحشية وخسة وظلم وفساد :

انظروا الغرب إنه مسرع الخطى للعدم

ويدعوا المسلمين إلى اغتنام فرصة إسراع الغرب نحو الهاوية والفناء لابتعاث بدر أخرى جديدة تنشر النور في الظلام وتستعيد بناء الإسلام وحضارته وقيمه وقيمته ، وعصره الذهبي ، ولكن بشروط إسلامية فعلينا أن ننشر السلام والعدل والأمن بين الناس إن ملكنا .

ويختتم القصيدة بأربعة أبيات تبدأ بتكرار مطلع القصيدة وكأنه يشير إلى تولد الذكرى في داخله وتكرار وتعدد صور ومعطيات غزوة بدر الكبرى في وجدانه ، فهي منشأ القوة والهيبة والعزة عند المسلمين حتى ظنوا في أنفسهم خيراً .

ومن صور الحاضر ، قصيدته "ذقنا الهوان"، من الكامل المجزوء ، وهي قصيدة سياسية ، يتحدث الشاعر من خلالها عن افتقاده للدستور أو بمعنى أدق روحَ الدستور الذي جاهدت مصر كثيراً من أجله ، فيشكو من استشراء داء المناصب والرياسة ، ويطالب الزعماء بأن ينتبهوا لشعبهم ، وهذه القصيدة تعارض قصيدة في غير الموضوع للشاعر أحمد شوقي وقد استمد الشاعر مطلعه من قصيدة شوقي :

قولوا له روحي فداه .:. هذا التجني ما مداه

وفي مقطوعته إلى الشباب ، من الرمل ، يدعو الشباب السادر في غفلته إلى الانتباه ، فالغرب يتربص بمصر ، وتحدق المكاره بها ، بينما شباب مصر قد ألفوا المذلة والخنوع ، ويدعوهم إلى الانتباه فقد ملك الغرب زمام الجو من فوقهم .

يا شباباً غافلاً عن مجده .:. تخذ اللهو شعاراً وإماماً

ويعرض في مقطوعته "الشرق والغرب"، من الطويل ، صورة لعلاقة الشرق بالغرب ، فالشرق يتبع الغرب حذو القُذَّةِ بالقُذَّةِ ويهواه ، بينما الغرب ينكث ، يعاهده ويخون ،

وبدأ يعرض صوراً لأظافر الغرب المنتشبة في جسد الشرق ، آنذاك ، فالإنجليز في مصـــر وفرنسا في الشام وإيطاليا في أرض الأحباش .

كانت هذه رحلة مع النسر حلقنا خلالها في أجوائه وتعرفنا إلى بعض مواطنه وتخومـــه ، ولنا في النهاية أن ندعو الاتجاه الفكري والبحثي في مصر إلى عقد هدنـــة مـــع الـــنفس والتصالح مع التراث ، والبحث عن أمثال هؤلاء الذين ظلمتهم السياســـة ولم ينصـــفهم التاريخ ، وبخاصة أدباء وكتاب وشعراء الاتجاه المذهبي الذي كان يسمى بجماعة الإخوان المسلمين ، الذين لا ذنب لهم إلا أنهم يحملون هوية في الزمن التائهين ..!

محبة لكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

علاء الدين رمضان

ساحل طهطا في الخميس ٧ من أبريل ٢٠٠٥ الموافق ٢٨ من صفر ١٤٢٦هـــ

الندوة بقصر ثقافة مدينة (أبو تيج) بأسيوط ؛ بتاريخ الخميس ٧ من أبريل ٢٠٠٥ الموافق ٢٨ من صفر ١٤٢٦هـــ

غابة الدندنة
http://come.to/alauddin
EGYPT

غابة الدندنة
alauddineg@yahoo.com
http://come.to/alauddin